

من الصنائع الايرانية القديمة : ومن امه ما هو ساع اليه اصلاح نظام التعليم . والشعب الايراني من ارق الشعوب ارومةً فاذا تناول مقومات العمران الحديث النامي ولم يمسأ بالدين يحاولون ردةً الى القديم الباني وجرى هو والشعب التركي في هذا المضمار لم تضر سنون كثيرة حتى نرى في الشرق الاوسط عمراً زاهراً يباهى به

## الشيخ مرعي صبيح

قصة مصرية .

٢

اما الس رقية واولادها فقد لحقتهم المذلة وحرموا ما تعودوه من طيبات الحياة ولكنها جلت على اشعم فلم تظهر حالها وتمكنت بالقناعة والصبر من الظهور بالسر ولم تشرك في امرها احداً سوى ابن خالتها «الحاج عزب متولي» ، وكان ككها بصراً بالسواقب ، فتمكن بالشجاعة والحيلة من استرداد عشرة افدنة من الاطيان التي قلقتها رقية وضما زوجها الى ملكه واخذ عزب يزرعها ويختلص ايرادها لرقية . وكانت لا تذكر زوجها بخير ولا شر وعنايتها منصرفة الى تعليم الولدين ما تيسر من القرآن وقواعد الحساب وتدريب البنت على تدبير المنزل . واخذ الدوار يقفر ويقادره المقيمون بالتدريج ولم يبق فيه الا وسيلة الحبسية وزوجها مرجان فقد اياها هجر سيدتهما وأغلقت المضيقة والمنظرة ، وذبلت ازهار الحديقة وجف اواؤها . وكانت رقية تسمع احيانا اصوات اجانب يذكرون اسم زوجها ويكتبون في اوراق ويتركون لها اوراقا اخرى ثم ينصرفون فاخبرها الحاج عزب بانهم محضرون من المحكمة المختلطة وقال لها : « ان كنت شاربة من ثدي امك فسافري واجهي عن هذا الخاسر ورددو بالقوة الى بيته الذي خرب واولادو الذين تبتوا في حياتهم »

رقية : « كيف اردته بالقوة يا حاج عزب ! قوة ربنا فوق كل شيء »

عزب : « لكن ربنا امرنا بالسعي وترك الجبل على الغارب غلط »

رقية : « صحيح يا ابن خالتي لكن مضى زمن طويل والشيخ مرعي على حاله »

عزب : « طيب يا رقية والاوراق النازلة علينا مثل المطر من المحكتين الاحلبي والمختلطة

والبنوك واخوات ارباب الديون بالربا »

رقية : « كل الاوراق التي وصلت الى يدي سلمتها لك »  
عزب : « وانا سلمتها للوكيل وناظر الزراعة فتراكت مثل المم على القليب ولم يرسلوها  
الى حضرة البك لان الوكيل نعى عن ارسالها »  
رقية : « والعمل ؟ »  
عزب : « ما وراء الورق الأخراب الديار »  
رقية : « خراب أكثر مما جرى ؟ ان كان كذلك فاسفر وسلمة اياها بدأ يد »  
عزب : « على الرأس والعين ا اعطيني عبد الرحمن لعل الشيخ مرعي يرق قلبه وبذلك  
اهله ومنزله ! لانه كان احب اولاده اليه »  
فيكت رقية وقالت : « يا عبد الرحمن فم مع خالك عزب ا »  
وفي صباح احد الايام استيقظ مرعي بك على صوت يَبْئُهُ بان ضيقاً من الريف ينتظره  
فهض وبه اثر الخمار وفرك عينيه وخرج الى قاعة الاستقبال يتعطل في « ييجامنا » من الحرير  
وامر بادخال النيف فاستأذن عليه كهل وفتى فلما وقع بصرا الحاج عزب عليه قال : « صباح الخير  
يا مرعي يا ابي » . فتنبه البك كأنه كان في حلم وقال : « مرحباً بك يا خال عزب انا  
والله ما عرفتك » فقال عزب مشيراً الى الفتى الذي اخذ يرتجف وبسكي : « وهذا ايضا  
ألم تعرفه » . فارتج على مرعي بوجه وقال : « يا ولد يا عبد الرحمن من جاء بك الى هنا  
يا ابن الظلمة ؟ » . ولم يُصِبْ هذا السُّلُّ في شيء اصابته في وصف نفسه ! فارتفع  
صوت الفتى بالبكاء فقص الحاج عزب الى صدره . ولم يلتفت مرعي الى سخافة ولدوه وتغير  
ملاحظته ورتاثته ثوبيد ولم يسأل عن بقية امرته القديمة ولم يخطر بباله واجب الضيافة  
وكان الكرم شيبته ، بل تناول علبه « سجائر دفريس » وعرضها على الحاج عزب فرفض  
فقال : « ولماذا حضرتم يا خال ؟ » ولم ينتظر الجواب لانه خشي ان يقف اهل المنزل  
على حقيقتها ، فتعلم زوجته الجديدة ، بزوجته القديمة . فقال « خذ يا خال عزب هذا  
الجنيد واستقاني الى قهوة عثمان امام جامع قيسون ريثما احضر » فقبل الكهل المبعاد  
ورفض الجنيد وربما نطن الى الحقيقة . وقام والولد يتشران في اذبالها وكانت جفون الولد  
سبللة بالدموع فلبس مرعي ثيابه وخرج في اثرهما فوجد الكهل جالساً في وقار وتصكير  
والفتى في هم وألم فسأل عن سبب حضورهما فخرج الكهل من « دثبته » حزمة كبيرة من  
الاوراق فتناولها مرعي ونكها واخذ يقلب فيها نظره فادرك انها اوراق قضائية فقال :  
« ما هذا يا خال عزب » وامتنع لونه واضطرب فكره

فقال نه « هذه يا ابني قضايا ومجوزات واقساط البنوك وطلبات المال واوراق الهندسة وورق تزعم الملكية »

فقال مرعي : « ( مزع ) ملكية ؟ كفى الله الشر ! »

فقال عزب : « كل شيء بيد الله »

مرعي : « ومن استلم هذه الاوراق كلها ؟ »

عزب : « اهل البيت واخدم وطلوها للوكلاء والنظار »

مرعي : « والعمل ياخال عزب ؟ »

عزب : « اسأل المحامي وها أنا يا ابني احضرت اليك الاوراق وجيتك بولدك

لانه كان بيكي طوال الايام ويطلب ان يراك . وقد حصل المراد والسلام عليكم » .

ونفض فخرج مرعي من جيبه عشرة جنيهات ووضعها في ستديل وقال لعبد الرحمن :

« خذ يا ولد كسونك » فاخذها الولد ونظر الى ابيه بعين جامدة كمن يتقبل صدقة

العدو مضطراً ، واقتربوا .

نفض مرعي يحمل الاوراق المؤذنة بحزابه وقصد منزل رفيق في « درب العوالم »

حيث تعاشره سودانية مجوز مصابة بالصرع وهي التي كان ذلك الرقيب المأقون يصفها بانها

« اسرته واهل بيته وبيت العيلة » فلما التقى مرعي برفيق السود وشيطان حياته وجد في

اجفانه آثار الكرى وعلى وجهه « كابة الشراب » وهو يحبو « فحمان معات » ويقول

« ان المعات » يحيي رميم العظام ، فاطلمه مرعي على الاوراق فلم يرتبك -وقال « المسألة

في غاية البساطة غير اننا لا نستطيع مقابلة صديقي ابي راضي بك المحامي الشهير قبل

الساعة الرابعة فلنخرج نتحدى اولاً ثم نقابله وتأخذ رأيه » . فانطلقا

كان رفيق في ذلك اليوم نادر الكلام ولا عجب فقد كان يضع خُططاً جديدة

تتفق مع تغيير الحال . كان المحامي كهلاً سريع الخاطر حوشي الالفاظ فقدم له رفيق

الاوراق فادرك فوراً سوء حال الموكل الجديد، وسأل عن سبب صدور الاحكام في

غيبته واهمال المعارضة في مواعيدها ، فلم يجز مرعي جواباً فقال المحامي : « إنه مستعد

لقبول القضايا ليمثل جهده وانه بحاجة الى زميل مختلط ليمشتر قضايا البنوك ولا داعي

للاتفاق على الاتمام حالاً ولا بأس بدفع مبلغ لحساب الرسوم والمصاريف لان معظم

القضايا من اختصاص الاسكندرية » فدفع مرعي بك ما كان معه وقام ورفيق ولم يكادا

يخرجان حتى اسرع رفيق بالاعتذار وطلب الى مرعي ان ينتظره بمحل « الحرفاني التركي »

ناقترقا ولم يفر رفيق بوعده ، فاحرق مرعي من السكاير ما شاء وشرب من الخمر ما تشن فيه تعريجا للهم ، ثم عاد الى بيته بعد نصف الليل ، وحاول محادثة زوجته فنأت عنه فلاطفها فشاكته فقبل الحضومة راضيا واضطجع حتى الصباح . . وفي الغد تراكمت طلبات الدار فسد بعضها وعجز عن بعض فتخمرت له وجيدة واهلها وساقوه بالسنة حداد تقصد بيت رفيق فكشمت جاريته « بشري خير » خير وجود سيدها . تقصد بعض ماملية من المرابين واقترض مبلغا يسد به فوهة المنزل ثم خطر بالهوان يترىض فاسافر الى حلوان حيث قضى يومين ثم عاد الى المنزل في اليوم الثالث فوجد به اعلان دعوى شرعية من زوجته وجيدة تطالبه بالنفقة فشكته المدثة والحدة فدخل عليها وخطبها : « صبيح يا وجيدة رفعت دعوى نفقة ؟ » فاجابت بلاحياء : « أليس لي حقوق احافظ عليها مثل زوجتك الفلاحة واولادها ؟ »

فسألها : « ومن اخبرك ان لي زوجة واولادا ؟ »

وجيدة : « ان رجلا في سنك ومكانك لا بد ان تكون له اسرة في بلدو وقد اخبرني الذين زاروك في بلدك وقد رأيت ابنك وخالك منذ بضعة ايام »  
فقال : « ابني وخالي ؟ »

فقالت : « لا تنكر فقد سمعت الحديث الذي دار بينكم »

فغضب مرعي وملك الفيظ زمامه فكظمه وخرج على قدميه حتى بلغ حانة « سانت جورج » فجلس يشرب ليني المسموم التي دهمته وتمنى لو يقابل رفيقا وهو الذي عوده الاختلاف الى تلك الحانة ، ولكن هذه الامنية لم تتحقق لانه كان في شغل منذ اطلاعه على الاوراق فقد عاد بمفرده الى مكتبه الي راضي بك واخبره انه لا يرى بأسا في اشراك محام مختلط ليجلو له غايب الاوراق الفرنسية فغاطب الاستاذ اسكودينا كس فحضر وكان يونانيا يجيد العربية ذا عين واحدة مشهورا بمذقه في اسرار قانون المرافعات وحسن بلاغ في اجراءات التنفيذ فوضع الاوراق بين يديه بحضور رفيق وقضوا في درسها نحو ساعتين حتى تبين لهم سوء مركز الرجل وان ثمن الاطيان قد يكفي السداد ولا امل امام المحكمة المختلطة الا في التسوية ولكن النتيجة محتمة ما لم يحدث امر خارق ولا بد من توكيل محام بالاسكندرية لعله يتقد ما يمكن اتقاذه من تلك السفينة المشرفة على الفرق

اسار رفيق فادعى المحامي الاهلي خيرا وتقع باب الامل للاستاذ المختلط وانصرف

ليرسم خطته الاخيرة للاجهاز على صاحبه وهي التفريق بينه وبين وجيده فحصل على مبلغ حسن ثم يسعى بينها وبين امها واخيهما فقهرجهن من بينها فتحتاج الى من تركز اليه فلا نجد سواهُ فيتزوج منها بشروط اولها تمازها عن نصف الدرهماً لحن العشرة في المستقبل، فيادر الى وجيده وامها في الفترة التي كان مرعي في اثامها رعين موعده بالخانة واطلمعها على حقيقة حال الزوج ونصح لها يرفع دعوى النفقة وقادعا الى محام شرعي فوكلته الزوجة. ثم ان رفيقاً ايضاً باسطرار مرعي للبال واراد ان تكون له يد في الصفة الاخيرة فعسى حتى اهدى الى احد المشايخ الذين لا يأتونو الجمع بين التقوى « والعشرين في المائة » ورغبة في اقراض مرعي حتى قبل فاقباه للفرصة المناسبة . وكان رفيق يحنني في منزله . ويامر « بشري خير » ان تكتم وجوده . ولما علم ان شار خطة الطلاق قد نصحت قصد مرعي بك فلما رآه ذلك الاحق الخفور استنثت به وشكاه له فعل وجيده فاصفى اليه كمن يسبح جديداً وقال له ان حل المسألة بالصلح احل عاقبة ما دام لم يعقب منها ولداً مرعي : « اي صلح يا رفيق بك كيف نقاضي امرأة في بيتي و«صمتي» ونفقتة » رفيق : « دستور يا بك ! ان البيت يشها وكونها في عصمتك لا يمنعا من حفظ حقوقها والكلام في نعمتك او نعمتها تقص وعيب »

فطن مرعي ان رفيق مدفوع بالاخلاص فاستلم اليه فقادته الى المحامي الشرعي وكيل وجيده فلقبها لقاء حسناً وبدأ يسرد ادلة وجيده وحمجها القوية وبتشهد بقضايا نسب لنفسه فضل كسبها و اشار الى شفقة القضاء على السيدات . وكان رفيق صامتاً كشاهد لا تسره النتيجة ولا تسوءه . فاخذ مرعي بلامة نسيه يسرد تاريخ زواجها بوجيده ورفيق يتقل على الجمر ولا ينكلم فكان المحامي يلين حيناً لطيب عنصره ثم يعود فيشتد بحكم مهنته وكان مرعي يستجد رفيق فلا يجده ، وبتشهد به فلا يوبده ، حتى سقطت جميع حججه فاستلم المكين للصلح بجميع شروطه ومنها الطلاق وموآخر الصداق ونفقة العدة ومجموع المطلوب الثلاثة جنبه ولكنه اعتذر بالضيق الوقتي فنطق رفيق بعد الصمت الطويل واقترح عليه « حسناً للزراع » الاتجاء الى الشيخ مبروك ليرضه المبلغ المطلوب فقبل مرعي ودفع على الصلح ثم على سند الدين . ومنذ تلك الساعة لم يعد مرعي الى منزل الخلية فلماً الى فندق « الضيف الكريم » وارسل في طلب ثيابه وهي كل ما يملكه من البيت الذي دفع ثمنه وثمان ما فيه من اثاث ورياش وافنق على ما كنيه جملة احوام . . . وكانت ديونته قد بلغت خمسة عشر الف جنبه اضاعها في خمس سنين في القمار

وسباق الخيل وتفتات المنزل والزواج والطلاق واقراح الاصهار ومآتمهم ، ومصاريف الاصطبل واثمان الثياب واتعاب الحمامة وفوائد القروض ورسوم المحاكم . فلما تأيدت الاحكام ورفضت المعارضات واستحضرت الشهادات ومضت مواهيد التنبيه والتسجيل وانطلق ارباب الدين الثابتة وتمت اجراءات النشر وتحولت الدعاوي على قاضي البيوع بالشروط المنصوص عليها في القانون وقائمة المزداد بيعت الارض صفقة واحدة ورسامزادها على البنك بعد ان حل محل غيره من الدائنين ليني طول اجراءات التوزيع فبلغ ثمنها مقدار الدين تقريباً ولم يبق للدين كثير ولا قليل وكان البنك نوع ملكية ارض الست رقية ، ولان ادركها الحاج عزب فاسرع الى الاسكندرية ووكل محامياً في المعارضة سيف « تنبيه نزع الملكية » وفي دعوى « استحقاق العقار » عن الثلاثين فداناً وقدم اعلام الوراثه وأوراق المال والكشوف الرسمية وما زال ذلك الريني الصالح يجاهد ويمد المحامي بالمعلومات ويحرك شفقتة على الام والاولاد حتى حكم نهائيًا بقبول المعارضة في التسيب واحقيتها وتثبيت ملكها وبذلك ضمن لها ايراداً ثابتاً يكفيها

وعلم الشيخ مرعي ان جميع ما كان في حوزته من مال ثابت ومنقول بيع بالمزاد وكان رفيق السوء قد تزوج من وجيدة بمجرد انتهاء العدة بعد ان مهد للفراق بينه وبين صاحبه القديم بقوارص الكرم والقطيعة واقام في البيت الذي اشتراه مرعي بماله . وكان مرعي لا يعلم بهذين الامرين فحدثته نفسه يوماً ان يقصد بيت مطائنة ليزور حماة ونسيبه « التنبيلين » حفيدي الخربوطلي باشا . فخرج اليه طاهر واخبره ان « لا يكن هذا البيت احد سرى الست وجيده حاتم حرم حضرة رفيق بك » . فرفع مرعي عينيه عرضاً الى نافذة الغرفة التي كان ينام فيها ، فالتفت بعين وجيده ، فحاول الكلام ففصم بريقه وسمع صوتها تقول للطاهي « اصرفه يا عبده واقفل الباب » فلم ينتظر امر الطاهي بل سار من تلقاء نفسه يشعر في اذيال الندامة والخجل ولم يبق حتى سمع الناس تصرخ : « حاسب يا انندي » فاذا هو في منتصف الشارع بكاد يذهب فريسة الترام . فاسرع الخطى وسار بفرينته فندماً ليتوارى عن الاعين حتى بلغ باب مسجد عال . وكانت الشمس قد آذنت بالمغرب مجلس على اور درجات السلم ووضع رأسه بين راحتيه وبكى ! فلما نهض كان الظلام قد ارخى ذوائبه وبدأت الانوار تلتقي من اشعتها شباكاً على الكائنات وتقللاً فضاء الليل بصور واشباح تسار في طريقه يترجم ويخبط كمن ضل الطريق ، وما زال كذلك حتى بلغ خان الخليلي على غير هدى فذكر السيد فرج ابي الخير فقص مفجروه فوجده

مطلقاً فضاقت الدنيا في عينيه ، ولم ينقطع حراكاً نبصر بمقعد طويل من الخشب الصنيق وكان قد بلغ منه الاعياء فارغى عليه واستسلم لنوم عميق ، وقد اغضلت العناية عنه اعين الحراس ، فلما افانى كان الصبح قد تنفس ، واقبل السيد فرج ورآه فأكرمه وسأله عن حاجته فافضى اليه يرغبه في تغيير زيوه والسر الى بلدو فقام التاجر بواجب المودة والوفاء . اما الشيخ مرعي فلم يجرؤ على دخول بلدو وترجل في شراخيت وقصد خربنا حيث نزل ضيفاً على الشيخ عثمان الوكيل من اعيانها وكان عن عركوا الدهر وذاقوا حطوة ومرة فلم يسأله عن شيء ولم يظهر عملة بماله بل بالغ في اكرامه . وبعد اقامة شهرين طلب مرعي الى الشيخ عثمان ان يكتب في شأنه الى الحاج عزب ففعل فسال الحاج عزب رقية رأيها في ابن عمها وزوجها القديم فلم تقبل مصالحته واصرت على رغبتها في اثبات الطلاق وقالت إن الموت احب اليها من معاشره هذا المختال القخور ، بعد ان قطع الرحم ، واضاع التراث واتبع هواه ، ، وكسرت شبابها على تربية اولاده . ولكنها تنزل عن حمة اقدنة من ارضها توجرها للحاج عزب على ان يوجرها لمرعي بقيمة المثل . تركب الحاج عزب الى خربنا وعرض الشرطين على مرعي فقبلها وحرر رقية وثيقة الطلاق وعاد بعد بضعة ايام تحت سجع الظلام الى قريته واقام في بيت نطب الدهشان وهو اصغر دور القرية واقصاها وارسل لحيته وقد شابت كل شعرة فيها ، ولوا استطاع تغيير اسمه لفعل ، اما اولاده فكانوا يزورونه فيلقاهم كرجل غريب القلب والعين واللسان وقد انطقاً من قلبه سراج الحب ومخطم من نفسه هيكل الوفاء . وكان الحاج عزب يزوره ويعزيه ويساعده في زراعة الارض ويعزيه حيناً بالمرور بالدوار الذي احتله المالك الجديد فاذا بدا له انقباضه قال له « تشجع يا سعادة البك من فات قديمه تاه ومن ترك شيئاً عاش بلاه ! » فلا يدري مرعي بك أكان هذا القول عزاء ام تشجيعاً ، فلا يجيب عليه

واذ كان مرعي يتقرب يوماً في اوراق مهمله ضرر بعدد جريدة المؤيد الذي نشر فيه خير الانعام عليه بالرغبة الثانية فلما اعاد قراءته اخذ يحدق في تلك السطور ويتطب اجفانه في الصحيفة الحمراء كأنه يستعيد من خلالها ذكرى الماضي ويستحضر اشباحه المندثرة . فاذا به يرى نجاة وجه رفيق وكأنه يسمع صوته وهو يقول : « لا وسيلة للوصول الى تلك المقامات الا بالرغبة الثانية مع لقب بك . ان ثروتك يا شيخ مرعي ومكانتك بين قومك تحتمان عليك الحصول على الرغبة الثانية واللقب فنخلص بهما من لفظ الشيخ فتصير فوراً سعادة مرعي بك صبيح » انتهى

محمد لطفي جمه المحامي